حول نشاط معهد الاستشراق في موسكو

خلال عام ١٩٧٨

نزار عيون السود

صدر خلال العام المنصرم – ١٩٧٨ – عدة كتب وابحاث عن معهد الاستشراق في موسكو حول الادب العربي والحضارة العربية الإسلامية بصورة عامة . ومن بين أشهر ما اصدره المعهد خلال هذا العام : « ابو نواس» للمستشرقة السوفييتية بيتسي شيدفار * و « الحضارة والادب العربي في العصور الوسطى » وهو مجموعة مقالات لمستشرقين أوربيين ترجم الى الروسية باشراف معهد الاستشراق في موسكو عن الانكليزية والفرنسية والالمانية والايطالية ، و « الاسلام والمجتمع مشروع دراسة تاريخية – سوسيولوجية » للباحث طالب سعيد بايف ، و « غنائيات شعراء آسيا وافريقيا » ترجمة م . كورغانتسيف ، و « الادب العربي في العصور الوسطى (القرنان الثامن والتاسع) » للمستشرق السوفييتي اسحاق فيلشتينسكي هذا بالاضافة الى مجموعة ضخمة بعنوان « مختارات من النثر الادبي لادباء الشرق الاوسط » .

اما الآن فسنتناول كتاب الباحثة بيتسي شيدفار « ابو نواس » . صدر هذا الكتاب ضمن سلسلة « كتاب وعلماء الشرق » التي يصدرها معهد الاستشراق في موسكو . ان بيتسي شيدفار قد قامت في كتب اخرى بدراسة ابي نواس وشعره ومن بينها كتاب « الاستعارات والمجازات في الادب العربي القديم » الذي صدر في موسكو عام ١٩٧٤ . كما قامت بترجمة « غنائيات ابي نواس » الى الروسية في كتاب صدر عام ١٩٧٥ .

يقع كتاب شيدفار في ٢٣٢ صفحة من القطع المتوسط . وهو أكمل دراسة ادبية صدرت حتى الان في الاتحاد السوفييتي عن حياة ابي نواس وادبه . وقد استعرضت الكاتبة فيه مراحل حياة ابي نواس بالتفصيل، بالاعتماد على كثير من المصادر وبالدرجة الاولى ديوان الشاعر واشعاره . كما صورت بكثير من الدقة والعناية جو الحياة السياسية الاجتماعية والادبية آنذاك في بغداد وفي الدولة العربية – الاسلامية معتمدة في ذلك على اعلام الفكر العربي التاريخي ، امثال الطبري واليعقوبي والاصفهاني وابن الاثير. وقسمت الباحثة كتابها الى فصول تطابق المراحل الاساسية لحياة ابي نواس ، وذلك كالآتي : المقدمة – فجر الحضارة العربية – الاسلامية – شباب الشاعر – البصرة – بغداد – ابو نواس والخليفة – ذروة مجد الشاعر – رحلة الى مصر – الشاعر «المرتد» – مجد الشاعر وكراهية الحاكم – في بغداد من جديد – بداية الزمن الغامض وانهيار الشاعر .

* بيتسي ياكو فليفنا شيدفار – « ابو نواس » – موسكو – دار « العلم » ١٩٧٨ – سلسلة كتاب وعلماء الشرق – اكاديمية العلوم – معهد الاستشراق .

تقول المستشرقة شيدفار في مقدمتها لكتابها « ابو نواس » : « في شارع من شوارع بغداد الحديثة ، وبالقرب من ضفة نهر دجلة يمكن للمرء ان يرى نصبا تذكاريا منتصبا هنا منذ سنوات عديدة . واذا ما سأل السائح القادم الى عاصمة العراق عن صاحب هذا النصب ، فان اي عابر طريق من سكان بغداد يجيب قائلا : « ان هذا نصب تذكاري للشاعر العربي ابي نواس الذي عاش قبل الف عام » . ثم تتحدث الكاتبة في مقدمتها عن ابي نواس قائلة : « ان ابا نواس عظيم القدر لاكشاعر بارز ، ورجل مرح ، سريع البديهة ، حاضر النكتة فحسب ، بل وكشخصية متحررة لعبت دورا بارزا في اعداد جو الحياة الفكرية النشيطة الذي نشأ في بغداد والمدن الاخرى من الدولة العربية ـ الاسلامية خلال الفترة بين القرن التاسع والقرن الحادي عشر ، تلك الفترة التي تعرف احيانا باسم « عصر النهضة » . ان من الاهمية بمكان ، الكتابة عن اولئك الشعراء ، امثال ابي نواس ، لان القارىء سواء في الاتحاد السوفييتي او في البلدان العربية ليس لديه تصور دقيق عن تطور الحياة الادبية في الشرق العربي ، وعن تعدد جوانبها وتعقيداتها ، متصورا هذه السيرورة على درجة كبيرة من البساطة والغرابة ، ومتأثرا في ذلك الى حد كبير « بالف ليلة وليلة » . طبعا قد نختلف نحن مع الكاتبة في المبالغة في تقدير اهمية ابي نواس كـ « شخصية متحررة » لعبت دورا بارزا في اعداد جو الحياة الفكرية والروحية النشيطة الخ .. » ، لكننا لا نخالفها في اهمية دراسة هذه الفترة من تطور الادب العربي ، بمزيد من التدقيق والتمحيص ، بالارتكاز الى خلفية الحياة الاجتماعية والسياسية والادبية في هذه المرحلة من تطور الدولة العربية الاسلامية . وهذا ما حاولت الكاتبة في هذه الدراسة انجازه فنجحت في بعض الجوانب واخفقت في جوانب اخرى .

ثم تتحدث الكاتبة عن المصادر التي اعتمدتها في دراستها لابي نواس فتقول :

« لقد استخدمنا في كتابنا هذا وثائق عصر ابي نواس بصورة خاصة ، واشعاره هو التي اتفق اصحاب التراجم وكتب الادب على نسبتها اليه بالدرجة الاولى . ودرسنا ديوان اشعار ابي نواس التي وضعها العالم العربي حمزة الاصفهاني (المتوفى سنة ٩٨١م.) الذي طبع في القاهرة عام ١٩٠٤ ، وديوان ابي نواس الصادر في بيروت عام ١٩٦٢ . كما درسنا اشعار ابي نواس الواردة في الكتب التي تتحدث عن الشاعر وسيرته وحياته ، والوثائق التاريخية ، وغيرها من الاعمال والابحاث التي ترتبط بتاريخ العباسيين وادبهم في القرنين الثامن والتاسع». ومن اجل بعث الخلفية التاريخية ، وتصوير جو الحياة السياسية والاجتماعية ، اعتمدت الكاتبة على المصادر التاريخية الاساسية مثل « تاريخ الامم والملوك » . للطبري ، و « الكامل في التاريخ » لابن الاثير ، و « كتاب البلدان » لليعقوبي ، ومن بين المراجع الادبية التي لجأت اليها الكاتبة : « الاغاني » لابي الفرج الاصفهاني ، و « طبقات الشعراء » لابن المعتز ، و « وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان » لابن خلكان ، و « اخبار ابي نواس » لابن هفان ، و « معجم الادباء » و« ارشاد الاريب الى معرفة الاديب » لياقوت الحموي .

تتحدث الكاتبة في فصل « فجر الحضارة العربية الاسلامية » عن استقرار السلطة للعباسيين في بغداد ، وبدء مرحلة الاستقرار وتمثل الحضارات وتبادلها ، تلك المرحلة التي أدت الى نشوء حضارة عربية اسلامية ، متميزة وغنية ، تضم الكثير من الشعوب

والامم . وحول دور اللغة العربية في نشوء هذه الحضارة ، تقول الكاتبة : « لقد كانت اللغة العربية اساس هذه الحضارة ، وسادت العربية خلال فترة زمنية طويلة ، لا في اراضي الاقطار العربية الحالية فحسب، بل وفي ايران والاقطار الاخرى التي سكنتها الشعوب الاسلامية غير العربية . وقد لعب العامل الديني دورا كبيرا بلا شك ، فقد كان على المسلمين معرفة اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن ، كما كان اصحاب الديانات الاخرى في الدولة العربية الاسلامية ، بحاجة ماسة ايضا الى تعلم اللغة العربية ، لانها كانت اللغة الرسمية للدولة . ولكن يجب الا يغرب عن ذهننا ، تلك الخاصيات والميزات التي تتمتع بها اللغة العربية ، والتي جعلتها اداة رائعة للحضارة الجديدة، ويجب ان لانغفل عن غنى هذه اللغة وثراء مفرداتها وذخيرتها اللفظية،وغنى وتعدد اشكال قواعدها التي تسمح بالتعبير عن مختلف دقائق الافكار والانفعالات والمواطف البشرية » .

ثم تتحدث الكاتبة عن تطور الزراعةوالتجارة وتقدم العلوم ، وبروز المراكز العلمية والثقافية والتجارية التي ازدهرت في عهد الدولة العباسية ، كبغداد والبصرةوالكوفة. وبعد تقديمها صورة متكاملة عن الظروف التاريخية والاجتماعية والثقافية التي نشا فيها ابو نواس ، تقول المستشرقة : «هذه هي الظروف التي عاصرها وعاشها ابو علي الحسن بن هانىء الدمشقي ، الذي دعاه معاصروه بابن هانىء احيانا ، وبلقبه الذي اختاره لنفسه « ابو نواس » في اغلب الاحيان . ان مانعرفه عن ابي نواس كثير وقليل في الوقت نفسه . كثير ، لان تلاميذه ومحبيه ومعاصريه ، والذين عاشوا بعد موته بمئات السنين ، قد جمعوا بعناية ، كل ما يتعلق بشخصيته وشعره وابداعه ، واحاديثه وعلاقاته المتبادلة مع الحكام ، والخليفة هارون الرشيد بوجه خاص ، ومع الاصدقاء والشعراء المنافسين له ، ومع اساتذته ، ومع من مدحهم ومن هجاهم ، ومع البرامكة وغيرهم » . وما نعرفه عنه قليل في الوقت نفسه ، لان « ثمة معلومات كثيرة عن ابي نواس تحمل طابعا اسطوريا . ولايمكننا الاعتماد بثقة كاملة ، حتى على معاصري ابي نواس وتلاميذه لان احاديثهم عنه متناقضة ، وآراءهم فيه متضاربة » . وتختتم الكاتبة هذا الفصل بقولها : « وليس من المستغرب ابدا ، ان يتحول ابو نواس بالذات ، اكبر شاعر في عصر هارون الرشيد - الذي اصبح بدوره ، في مخيلة الشعب ، « ملكا خياليا اسطوريا ، طيبا » ، ورمزا لعظمة العرب وازدهار الخلافة العربية الاسلامية - الى بطل رئيسي لمجموعة كاملة من الحكايات والاساطير الشعبية . لان ثمة قوة جذابة كبيرة في شخصية ابي نواس وابداعه ، اصبح بفضلها اشهر شاعر في عصره على الرغم من كثرة المنافسين له من الشعراء ، ورمزا للموهبة الشعرية » .

اما في الفصل الثاني « شباب الشاعر » ، فتتحدث شيدفار عن ولادة الشاعر في مدينة الاهواز ، ثم انتقاله الى البصرة مع والدته، بعد وفاة ابيه ، حيث تتلمذ على يد الشاعر دليبة ابن الحباب ، ثم انتقل واياه الى الكوفة ، ثم ارتحلا الى البصرة والحيرة.

وتقول الباحثة ، ان الحسن بن هانىء قد اشتهر منذ طفولته ، بالقدرة على نظم الشعر ، وبسرعة بديهته . كما تتحدث عن دراسة ابي نواس للشعر الجاهلي وحفظه له ، واعجابه بامرىء القيس ، ومعرفته بالشعراء الجاهليين والمعاصرين .

وتخصص شيدفار قسما كبيرا من هذا الفصل، للتحقيق في الروايات المختلفة حول طفولة ابي نواس وصباه ، كما ترسم صورة دقيقة لتفاصيل سيرته ، وتصف خطواته الاولى في مضمار الشعر .

وفي فصل « البصرة » تتحدث الكاتبة عن الفترة التي امضاها الحسن بن هانىء في البصرة ، فقد بدأ بنظم الشعر في المديح والهجاء ، وعن حبه للجارية جنان التي كرس لها عدة قصائد غزلية رائعة . ثم تروي الكاتبة ارتحال ابي نواس الى البادية، واقامته سنة كاملة بين قبائل البدو . ثم يعود ابو نواس الى البصرة ، حيث يلتقي بحاجب الخليفة هارون الرشيد . ان الحسن ابن هانىء لم يحظ في البصرة بشهرة كبيرة ، لان البصرة كما تقول الكاتبة : « قد تحولت من عاصمة العلم والشعر » الى بلدة ريفية ، ولم تعد ترضي الشاعر . وبالفعل ، ففي نهاية القرن الثامن ، انتقل القسم الاكبر من العلماء والادباء والشعراء الى بغداد ، التي كانت تنمو وتزدهر بسرعة خيالية ، وتطغى على البصرة والكوفة وغيرهما من مدن العراق بروعتها وثقافتها » .

وفي فصل « بغداد » ، تسهب الكاتبة في حديثها عن عاصمة العباسيين ، بغداد ، وازدهارها من الناحية الاقتصادية والتجارية والثقافية والعمرانية ، وتقص علينا بالتفصيل اقامة ابي نواس في بغداد ، ومبارياته الشعرية مع منافسيه من الشعراء ، وبروزه كشاعر من كبار شعراء العاصمة . وتذكر نماذج عديدة من اشعاره في هذه المرحلة ، ومن مطارحاته الشعرية .

وفي فصل « ابو نواس والخليفة » ، تروي الكاتبة اللقاء الاول الذي تم بين الخليفة وابي نواس وتذكر روايتي ابن منظور وابي هفان للطريقة التي تم بها هذا اللقاء .

وتشير الى اعجاب هارون الرشيد باشعار ابي نواس ، وتمتعه بحظوة لديه . وبذلك تبدأ مرحلة جديدة في حياة ابي نواس ، مرحلة من اليسر المادي النسبي .

كما تتطرق الكاتبة الى الظروف السياسية التي كانت تحيط بهارون الرشيد ، وعلاقاته بالبرامكة ، وتتحدث بالتفصيل، عن شخصيته وثقافته والجوانب السلبية والايجابية عنده. وتبين للقارىء ، أهمية الشعر في ذلك العصر، ودور الشعراء في التعبير عن الرأي العام ، ومدى انتشار ما يقولونه من مدح او هجاء لرجال الدولة والامراء واصحاب النفوذ . وتصف لنا الكاتبة طباع ابي نواس وكبريائه ، ورفضه الذل والهوان ، وعدم اراقته لماء وجهه حتى امام اعالي القوم ، على الرغم من حاجته المادية ، مما ادى الى خصومته مع كثيرين من اصحاب النفوذ ومن بينهم البرامكة، ودفع بالشاعر الى الابتعاد عن مجتمع الوزراء ورجال البلاط ، وتردده الى حانات الخمر والشراب .

وفي فصل « في ذروة المجد » ، تتحدث الكاتبة عن بروز ابي نواس كشاعر من اكبر شعراء نهاية القرن التاسع ، حيث حظي باحترام اصدقائه واعدائه ، واعترف له الجميع بالموهبة الشعرية . وقد نظم الشاعر ـ كما تقول الكاتبة ـ قصائد شعرية رائعة في هذه الفترة ، في الخمر والغزل والهجاء والزهد .

وفي فصل « حلقة اصدقاء الشاعر » ، تروي لنا الكاتبة حب ابي نواس للجارية جنان ، وتحدثنا عن اصدقاء الحسن بن هانىء ، مثل الشاعر مسلم بن الوليد وابي العتاهية ، ولقاءاتهم ومبارياتهم الشعرية ، واجتماعاتهم في بيوت الوراقين . كما تسهب في حديثها عن خمريات ابي نواس الرائعة ، واسلوبه

في الشعر ، كابتعاده عن الكلمات الغريبة غير المألوفة ، وعن الصور المعقدة ، وميله الى البساطة والبلاغة في الوقت نفسه .

اما في فصل « رحلة الى مصر » ، فتستعرض الكاتبة الاحداث التاريخية في تلك الفترة ، كازدياد نفوذ البرامكة ، ومن ثم فتك الخليفة هارون الرشيد بهم ، واثر ذلك في الرأي العام في بغداد ، وقيام عدد كبير من الشعراء برثاء البرامكة ، ومن بينهم ابو نواس ، مما اثار سخط الخليفة الرشيد عليه ، فقرر ابو نواس القيام برحلة الى مصر . وتروي الكاتبة الطريق التي سلكها الشاعر ، وتوقفه فترة من الوقت في تدمر وحمص والغوطة والجولان وغزة ، ثم وصوله اخيرا الى مصر . غير ان اقامته لم تطل هناك ، فعاد الى بغداد بعد ان اختلف مع امير مصر .

وفي الفصول « الشاعر المرتد » و « مجد الشاعر وكراهية الحاكم » و « في بغداد من جديد » ، تروي لنا شيدفار هذه الفترة من حياة الشاعر حيث عاد الي بغداد ، واقام فترة عند الجارية عنان ، ثم اتهامه بالزندقة ، ومحاكمته وتبرئة الرشيد له من هذه التهمة ، ونظمه القصائد الشعرية في الخمر والغزل ، وزجه في السجن بسبب من ميوله الشعوبية . ثم خروج ابي نواس من السجن بعد وفاة هارون الرشيد في عهد ابنه الامين . وتقريب الامين له . وتقول الكاتبة ان ابا نواس ، سواء في عهد الرشيد ام في عهد ابنه الامين ، لم يجعل من نفسه خادما او مهرجا ، وانه كان يعيش حياة مستقلة ، ويتردد الى قصر الخلافة حيثما شاء . كما تتحدث عن نظم ابي نواس قصائد عديدة في الزهد . وترى الكاتبة ان زهديات ابي نواس هي تعبير عن التمرد الاجتماعي .

وفي الفصل الاخير « بداية الزمن الغامض وانهيار الشاعر » ، تتحدث عن بداية الصراع المرير على السلطة بين الامين والمأمون ، والحملة الدعائية القوية التي شنها المأمون من خراسان ضد اخيه الخليفة الامين ، ومن بين التهم التي وجهها ضده صداقته ومنادمته لابي نواس ، الشاعر « الفاسق » ، المتهم في دينه . فكان ان حظر الامين على ابي نواس نظم الشعر في الغزل والخمر . غير ان ابا نواس لم ينصاع لامر الامين ، ونظم في هذه الفترة اروع خمرياته ، كما هجا الامين في احدى قصائده . وقد اتهم ابو نواس من جديد ، بالزندقة في هذه الفترة . فكان ان امر الامين بزج ابي نواس في السجن . ثم اطلق سراحه بعد فترة من الزمن . وفي هذه الفترة ، اقتربت جيوش الخراسانيين من بغداد وحاصرت المدينة . وتتحدثالكاتبة عن مقاومة اهل بغداد للغزاة مقاومة شديدة ، ثم احتلال الخراسانيين لبغداد وتهديم كثير من بيوتها وقصورها ، ومقتل الامين على ايديهم . وقد رثا ابو نواس الخليفة الامين بقصيدة رائعة ، وحزن كثيرا على موته . ثم تتحدث عن موت ابي نواس ، نتيجة ضرب مبرح ، او نتيجة سم وضع له ، وربما نتيجة مرض اصابه ، وتقول : ومما لاشك فيه ، ان ابا نواس قد بقي طريح الفراش فترة

طويلـة ، حيث كان قد اشتد عليه المرض ، ثم مات بعد مقتل الخليفة الامين بحوالي عام».
وتقول في خاتمة كتابها ، عن ابي نواس : « وهكذا مات شاعر من اكبر الشعراء العرب في القرون الوسطى ، هذا الشاعر الذي احتفظ حتى الساعات الاخيرة من حياتـه بروحه الاستقلالية وكبريائه ، وعزة نفسه ، هذا الشاعر ذو الروح المرحة ، والبديهة الحاضرة ، والنكتة اللاذعة ، الذي اصبح حديث الناس ، وطبقت شهرته الآفاق ، وصيغت عنه الحكايات والاساطير » .

وتقول الكاتبة ان ابا نواس قد تميز عن بقية شعراء عصره بموهبتـه الشعريـة ، وبحسه الفني الرفيع . كما تقول ، ان ابا نواس يرقى الى الصفوف الاولى من الشعراء في بغداد ، وقد اجمع على الاعتراف بهالشعب البسيط واصحاب النفوذ في ذلك الوقت . ان المستشرقة بيتسي شيدفار ، بفصلهـا الواقعي التاريخي عن الموضوع ـ نتاج اقاويل الناس ومخيلاتهم ـ ، وبمجادلتها احيانا مع عدد من المؤلفين ، تستعيد بصورة دقيقـة للغاية تفاصيل سيرة الشاعر العربي الكبير .

عالم قديم جبان

على هامش مهرجان بلغراد السينمائي الدولي التاسع

مهدي دخل الله

عقد في شهر شباط الماضي مهرجان بلغراد السينمائي العالمي التاسع حيث عرضـت مجموعة من الافلام الجديدة من دول عديدة . ولا يتم توزيع جوائز في هذا المهرجان بـل هو يقتصر على « عرض اهم ماتوصل اليـه الفن السينمائي في العالـم ، ويهدف الـى تطوير الاتجاه الانساني والتقدمي في هذا الفن والى نشر الثقافة السينمائية » كما جـاء في النظام الاساسي للمهرجان .

وتنفيذاً لمهمة نشر الثقافـة السينمائية بين الجماهير العريضة يتبع منظمو مهرجان بلغراد اسلوبا ديموقراطياً في عرض افلام المهرجان . فالافلام هنا لا تعرض في صالات مغلقة مقتصرة